التجديد

هذه إطلالة عام جديد ، وزمن حديث ، فيه يهنئ الناس بعضهم بعضاً ويباركون لأنفسهم ، ولا تدري لماذا تلك التهنئة ، وهاتيك التبريكات ، هل هي على جزءٍ من العمر انصرم ، وماضٍ من الحياة تقدم ، أم هي على زمن يستقبل ، ووقتٍ يُترقَّب لا يدرون ماذا ينتظرهم فيه ؟! .

وكان الأولى أن يعزي بعضهم بعضاً في موت جزءٍ من أعمارهم ، وهلاك وقت من أوقاتهم التي لو بذلوا أغلى ما لديهم لاستعادة دقيقة منها لما عادت إليهم « يا ابن آدم إنما أنت أيام كلما ذهب يومك ذهب بعضك » فمن ذهب بعضه ، وانتُقص عمره هل يفرح أم يحزن؟ .

ولكن لعل تلك التهاني هي من باب التفاؤل المحمود ، والأمل المنشود.

العام الجديد .. تتجدد فيه الهمم ، ويستعاد فيه النشاط ، وتراجع فيه الأحوال ، وتتابع الأعمال ، وتحسب الأموال ، وتُتَرقّب الآمال .

عام جديد .. والجديد كلمة محبوبة ، وعبارة مرغوبة ، وأمنية مطلوبة .

كلمة الجديد .. تأنس لها النفس ، ويتطلع لها الفؤاد ، ويفرح بها القلب ، ويشرق بها الأمل ويُطرد بها الملل ، فالإنسان خلق ملولاً ، يمل حتى النعيم إذا طال ، انظر إلى قوم سبأ كيف كانوا في نعيم مقيم ، وخير دائم ، ويسافرون من بلد إلى بلد وهم في ظلٍّ ظليل ، وأشجار ملتفة ، وبساتين مثمرة ، ويتمتعون بثمار يانعة ، لا يشعرون بتعب ولا يعتريهم نصب ، فوصل بهم الملل والخذلان أن تضجروا بهذه النعمة : ﴿ **وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ (١٨) فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ** ﴾ . [سبأ : ١٨ – ١٩]

وهكذا يصل الملل بالإنسان ، فهو يمل النعيم ويمل الشقاء إذا طال ، ويمل الحرّ إذا دام ، والبرد إذا دام ، يمل الأكل الرديء إذا استمر عليه ، بل يمل الأكل الشهي اللذيذ إذا داوم عليه . وقديماً تضجر بنو إسرائيل حينما داوموا أكل المن والسلوى ، وهي من ألذ ما يذاق وأشهى ما يؤكل أنعم عليهم بها مولاهم ، ورزقهم إياها خالقهم ، فصرخوا في وجه موسى صرخة المتضجّر ﴿ **يَا مُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ** ﴾ [البقرة : ٦١].

ولذلك تجد الناس يفرون من الملل ، ويستعينون على طرده بالتنويع والتجديد ، والتغيير والتنقل ، حتى ولو كان من حسن إلى رديء ، فالمترف يمل الترف الذي يعيشه ، ويتمنى أحياناً لو ينام ليلة على حصير أو يأكل الخبز الجاف ، وتجد الناس يشتهون الطعام التافه بجانب الجيد ، ويشتاقون للسكن في البرِّ والخيام والخدور فراراً من القصور والدور ، فما

أصعب الحياة الرتيبة ، وأشقها على النفس! ، إنها تميت القلب ، وتبعث على الخمول ، وتقتل الهمم ، وتميت الابتكار . والمتأمل لهذا الدين وشعائره ، بل للكون ومظاهره يجد أنها مراعيةٌ لهذا الجانب ؛ فهي مليئة بالتجديد ، متميزة بالتغيير ، بعيدة عن الرتابة ، طاردة للسآمة ، لذلك تجد الليل والنهار ، والشروق والغروب ، والحر والبرد ، والسهل والجبل ، والسهول المتباينة ، والجبال المتغايرة . جبال معمّمةٌ بالثلوج ، وأخرى مكسوة بالأشجار ، وتلك صخرية جرداء ، ﴿ **أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَٰلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ** ﴾ [فاطر : ٢٧] .

فقد أشار سبحانه إلى هذا التجديد والتغاير بين الثمار ، والأشجار ، والجبال ، والناس ، والدواب ، والأنعام .

قال سبحانه : ﴿ **أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ** ﴾ .

[الغاشية : ١٧]

تلك الطبيعة قف بنا يا ساري
حتى أريك بديع صنع الباري
فالأرض حولك والسماء اهتزّتا
لروائع الآيات والآثار

وبين تعالى في آية أخرى نعمه على عباده بهذا التنويع المبهج ، وذلك

الاختلاف الممتع في أنواع ما خلق لهم من الثمار ، وأنبت لهم من الجنان فاستمع إلى البيان الخلاب والأسلوب الجذاب ، قال عز من قائل : ﴿ **وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ** ﴾ [الانعام : ٩٩].

والثمار والأزهار عالم عجيب وغريب ، تتعدد مناظرها ، وتتفاوت من حيث روائحها .

وتنوّعت بُسْط الرياض فزهرها
متباينٌ الأشكال والألوان
من أبيضٍ يَقِقٍ وأصفرَ فاقعٍ
أو أزرقٍ صافٍ وأحمرَ قانِ

وهكذا ترى هذا التنوع المبهج ، والتجدّد الجميل ، جبال ووهاد، عيون وأنهار ، بساتين وأشجار ، جداول وخمائل . ولو كانت الحياة على وتيرة واحدة لضجّ بها الناس ، قال سبحانه : ﴿ **أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا (٤٥) ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا (٤٦) وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا** ﴾ .

[الفرقان : ٤٧]

ويقول تعالى ممتناً على عباده : ﴿ **قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ (٧١) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن**

جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [القصص : ٧٢].

ومن يتأمل شعائر هذا الدين وعباداته ، يجد التنوع والجدّة ، فأعمال قلبية ، وأعمال قولية ، وأعمال عملية ، وأعمال مالية ، صلاة وزكاة وصوم وحج وجهاد ، وتسبيح وتهليل وتمجيد وتكبير .. بل انظر إلى الصلاة مثلاً تجد التنويع فيها والتجديد ، فركعتان للفجر ، ثم أربع للظهر ثم أربع للعصر ، ثم ثلاث للمغرب ، ثم أربع للعشاء ، ثم منها ما هو جهري ، ومنها ما هو سري ، إلى غير ذلك من هذا التنويع البديع ، الذي يطرد الملل ، ويمنع الضجر . ولو كانت الحياة على نسق واحد ، والكون بمظهر واحد والنباتات والثمار من نوع واحد والعبادات في ثوب واحد ، لتعرض الناس لملل لا يطاق ، ولكانت الحياة عبئاً ثقيلاً لا يحتمل .

بل إن من سنن التجديد في الحياة هذا التجديد في الأجيال المتعاقبة حيث لا يمكن أن يُخلَّد جيل أو تدوم أُمّة بل يذهب جيل وتخلفه أجيال جديدة ، ولكن الخلائق جميعاً ستُخلق خلقاً جديداً : ﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ ، وقال تعالى : ﴿أفعيينا بالخلق الأول بل هم في لبس من خلق جديد﴾ .

أيها الأحبة .. أما ونحن بدأنا عاماً جديداً لماذا لا تهز هذه الكلمة أعماقنا ، وتوقظ وجداننا ، فنهرع إلى الجدّة والتجديد في أمور حياتنا ، وطرائق تفكيرنا؟ ، لماذا لا نجدد بتجديد العام ، ونغير بتغيير الزمان؟ ، حقاً إن كثيراً منا غيروا وجددوا مع تغير الزمان ولكنه تجديد إلى الأسوأ ،

وتغيير إلى الأدنى ، وتقدم إلى الحضيض .

فليس التجديد بالتحلل من الخلق ، والتمرد على القيم ، والتنكُّر للدِّين ، والانسلاخ من الحياء ، فما ذلك إلا دمارٌ وضياع ، وتيهٌ وضلال ، قال تعالى : ﴿ **ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ** ﴾ [الأنفال : ٥٣] .

إننا نقصد التجديد إلى الأسمى ، والتغيير إلى الأفضل ، والانتقال إلى الأحسن في كل أمور حياتنا ، لماذا لا نجدد ، لماذا لا نُحَدِّث ، لماذ لا نطور ، لماذا لا نبدأ صفحةً جديدة مع ربنا ، ومع أنفسنا؟ ؛ صفحة جديدة في عباداتنا ، في فكرنا ، في تجاربنا ، في حياتنا ، في إنتاجياتنا ، في مسيرتنا كلها .

إن الإنسان مهما كان حجمه وموقعه ، يستطيع بقواه الكامنة ، وملكاته المدفونة فيه ، والفرص المحدودة ، أو المتاحة له ، يستطيع أن يبني حياته من جديد .

يخطىء من يظن أن الراحة والهناء هي في الكسل والخمول ، والراحة من العمل ، والتمدد على السرير المريح ، والفراش الوثير ، لو كان الأمر كذلك لما ملّ الناس هذه الراحة وتضجروا بها ، وفروا منها إلى العمل واستروحوا بالجد والتعب ، وأنسوا بالبذل والعمل . الراحة هي التغيير من حال إلى حال ، ومن عمل إلى عمل ، ولو كانت الراحة في عدم العمل لكان السجن أروح مكان . فما أحلى الراحة بعد التعب ، والنوم بعد

الإرهاق ، واليقظة بعد النوم ، والجلوس بعد الوقوف!!! وما أحلى العمل بعد الفراغ ، والفراغ راحة بعد طول العمل!! ، وما أحسن النظر إلى الصحراء بعد طول النظر إلى البحر ، والنظر إلى البحر بعد طول النظر إلى الصحراء!! وهكذا ..

إن أفضل الناس وأقدرهم هو من استطاع أن يتغلب على السأم والملل بالتغيير المناسب والتجديد الحميد ، في نفسه ، وفي غيره . وكثير من شرور هذا العالم سببها الملل والضجر . فإخفاق التلميذ وانصرافه عن الدراسة نوع من الملل ، وخمول الموظف وقعوده عن الجد في العمل وقلة إنتاجيته نوع من الملل ، والخمود السياسي والفكري والاجتماعي نوع من الملل ، والرغبة في الانتحار نوع من الملل ، وكثير من المشكلات الأسرية ، والقضايا العائلية ، والمشادة بين الزوجين أو بين الأب وأبنائه تكون بسبب الملل .

إن طريقة حياتنا أمرٌ يجب أن يُدرس بعناية ، وإذا كانت الحياة أمراً مهماً يجب الاهتمام به وحسن دراسته في كل عصر ومصر ، فإنها في هذا الزمن أصبحت أمراً مهماً حيث تقدمت الدنيا ، وتعقّدت الحياة وتشعبت أمورها ، وعظمت شرورها ، وكثرت البلايا، وتعددت الرزايا ، ومع ذلك لا تزال طريقتنا في حياتنا وأعمالنا وتفكيرنا طريقة بالية قديمة إن الأمر إذا ارتقى وكثر تعقيده يصبح فناً يجب أن يدرس ، فهيا بنا إلى دراسة جادة لطرائق حياتنا ، وهيا بنا إلى التغيير والتحسين والتجديد ، تجديد ننطلق فيه مما لدينا من الثوابت والرواسخ ، إلى آفاق من البذل

والعمل ، والحيوية والنشاط ، وحسن التعامل مع الواقع الجديد .

وقد سعد الناس بالحياة ، وسعدت الحياة بهم ، حينما كانت انطلاقتهم في أعمالهم وأفكارهم وحضارتهم من تلك القيم الراسخة ، والمثل العالية، والتعاليم الرابحة . وإن تجديد الحياة لا يعني إدخال بعض الأعمال الصالحة ، أو النيات الحسنة ، وسط ذلك الركام الهائل من العادات الذميمة والأخلاق السيئة ، فهذا الخلط لا ينشئ به المرء مستقبلاً حميداً ، ولا مسلكاً مجيداً ، بل لا بد من التجديد الذي يقوم على أساس التخلص من الرذائل إلى الفضائل ، ومن الأفكار الطالحة، إلى الآفاق الصالحة . وإن البعد عن الله تعالى لا يثمر إلا علقماً، ومواهب الذكاء والقوة والمعرفة والتجديد تتحول كلها إلى نقم ومصائب عندما تبعد عن توفيق الله وتحرم بركته .

يجب أن يجدد الإنسان نفسه ، وأن يعيد تنظيم حياته ، وأن يستأنف مع ربه علاقة أفضل ، وعملاً أكمل ، وأن يفكر بجدية وتجديد ماذا سيقدم لأمته ودينه من جديد؟؟ .

ولعله من نافلة القول أن نبين أنه لا تجديد في شعائر الدين وعباداته وفرائضه ، فلا يأتي إنسان ليقول لماذ لا نجدد في الصلاة مثلاً ونغير في أركانها وشروطها ؟ فهذا وغيره من الثوابت التي لا تبديل فيها ولا تعديل ولا تجديد ولا تغيير « من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد » [أخرجه البخاري] ، ولكن التجديد فيها يكون بتجديد الإقبال عليها، وإحياء ما اندثر من معالمها ، يقول ﷺ : « إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل

مائة سنة من يجدد لها دينها » [أخرجه أبو داود] .

التجديد أمر مطلوب ، وشيء محبوب ، والنفوس تهتز ، والأعناق تشرئب ، إذا قيل فلان حصل على منزل جديد ، أو سيارة جديدة ، أو زوجة جديدة . . إن تجديد الحياة الزوجية أمرٌ مطلوب ، وليس ذلك بالضرورة عن طريق الزواج بزوجة ثانية أو ثالثة، ولكن يجب أن يتجدد الرجل لزوجته ، وأن تتجدد الزوجة لزوجها ، إذا أرادت أن تكسب ودّه وتضمن حبه ، وتطرد عنه السأم ، وتنفي عنه الملل . يجب أن يتجدد الرجل لزوجته في طريقة حياته ، في ملبسه ، في كلامه ، في هديته ، بل حتى في مواعيد دخوله البيت ، وخروجه منه ، وفي إقامته وسفره : فلا يخمد في البيت ليله ونهاره حتى يملّه البناء ، فضلاً عن النساء ، بل عليه أن يغيب أحياناً ليتحرك الشوق إليه ، وتتوق النفس إلى رؤيته .

وطول مقام المرء في الحي مخلق
لديباجتيه فاغترب تتجدد
ألم تر أن الشمس زيدت محبة
إلى الناس أن ليست عليهم بسرمد

ولا يكثر الغياب والبعد عن المنزل حتى تمل الزوجة كثرة الترقب ، وطول الانتظار ، فتبدأ وساوس الشيطان ونزغاته ، ومكائد النفس وأهواؤها ، وكذلك الزوجة يجب عليها أن تتجدد لزوجها في ملبسها، ومأكلها ، ومشربها ؛ في بيتها وتنظيمه ، في مطبخها وترتيبه ، في غرفة

نومها وتزيينها ، في التحبب لزوجها وإسعاده . وبذلك تصبح الحياة الأسرية حياةً جميلة متجددة ، بعيدة عن الرتابة، خالية من السآمة .

يجب على المسلم أن يجدد في إيمانه ، في صلته بربه ، أن يغير في طريقة حياته وأعماله وألوان نشاطه الخيري ، حتى تجري دماء التجديد في جسمه . يتخذ لنفسه برنامجاً جديداً حافلاً ؛ يقرأ القرآن ليجدد إيمانه ، يتأمل حياة النبي ﷺ ليجدد في أخلاقه وتعامله ، يزور القبور ليجدد لواعج الخوف في قلبه ، يزور المرضى ليكسب الأجر ويجدد وازع شكر النعمة على الصحة والعافية ، يعطف على الفقراء ، يسأل عن الأيتام ، ينفس عن المكروب ، يفرج عن المهموم إلى غير ذلك من الأعمال العظيمة التي يتجدد بها الإيمان ، وتتحرك فيها المشاعر ، وتأنس بها النفس .

ولقد دلّنا ﷺ على كثير من الأمور التي نجدد بها صلتنا بربنا وننوع فيها على أنفسنا فقال : « كل سلامى من الناس عليه صدقه ، وكلّ يوم تطلع فيه الشمس تعدل بين اثنين صدقة ، وتعين الرجل في دابته فتحمله عليها ، أو ترفع له عليها متاعه صدقة ، والكلمة الطيبة صدقة ، وبكل خطوةٍ تمشيها إلى الصلاة صدقة ، وتميط الأذى عن الطريق صدقة » [رواه البخاري ومسلم].

ويقول ﷺ : « على كل مسلم صدقة » ، قالوا : أرأيت إن لم يجد؟ قال : « يعمل بيديه فينفع نفسه ويتصدق » ، قالوا : أرأيت إن لم يستطع؟ ، قال : « يعين ذا الحاجة الملهوف » ، قالوا : أرأيت إن لم يستطع قال : « يأمر بالمعروف أو الخير» ، قالوا : أرأيت إن لم يفعل ، قال :

« يمسك عن الشر فإنها صدقة » [متفق عليه].

يجب على التاجر أن يبدأ صفحة جديدة في تجارته ، فيحاسب نفسه، وينظر إلى طريقة كسبه ، وأنواع تعامله ، وطرق مصارفه ، ومقدار إنفاقه ، وما ادخر لنفسه ، وقدم لآخرته ، ويعلم أنه « لا تزول قدما عبدٍ يوم القيامة حتى يسأل عن أربع ، عن عمره فيم أفناه ، وعن شبابه فيم أبلاه ، وعن ماله من أين اكتسبه ، وفيم أنفقه ، وعن علمه ماذا عمل به » [رواه الترمذي].

يجب على الموظف أن يجدد في طريقة عمله وإدارة مكتبه ، وطريقة سيره مع الناس . قد يخيم الملل على الموظف ، ولكنه يستطيع أن يجدد في عمله ويغير في طريقته فيجعل من عمله شيئاً جديداً مثيراً مشجعاً .

يجب على المدرس أن يجدد لتلاميذه حتى لا يصبح ممجوجاً مكروراً هو هو من عشرات السنين ، بل يجدد في الطرح ، ينوع في الأسلوب ، يتفنن في الآراء .

يجب على الخطيب والداعية أن يجدد في خطبه ، وينوع في مواعظه ويتألق في عباراته ، ويطور في كلماته ، ويتحين الأوقات المناسبة ، ويختار العظات الموافقة ، ويتخول الناس بالموعظة خشية السئآمة عليهم .

غير لائق بالخطيب يعيش عشرات السنين دون تجديد في العرض ، وتنويع في الطرح ، وتقدم في الأسلوب ، ورقي في الإلقاء .

يجب على كل إنسان يريد أن يستمتع بالحياة ، ويأنس بالوجود

ويسلم من العجز ، وينجو من الملل ، يجب عليه أن يجدد ، وينوع ، ويتفنن في إقامة حياته ليبقى سعيداً سالياً ، هادئاً مطمئناً . وأن ينظر دائماً إلى الأمام ، ويتطلع إلى المستقبل بنفس واثبة ، وقلب طموح ، وفكر نيّر ، ونيةٍ وضاءة ، وعزم صادق .

وقبل ختام الحديث يجب أن نضع نصب أعيننا : ***أنه ما من يومٍ ينشق فجره إلا وينادي منادٍ : يا بن آدم أنا خلق جديد وعلى عملك شهيد فتزّود مني فإني لا أعود إلى يوم القيامة .***

عَمَر الله أيامكم بالسعادة ، وأعوامكم بالسرور ، وأزمانكم بالرضا ، وحياتكم بالإيمان ، ورزقنا خير هذا العام وبركته ، وأعاذنا وإياكم من شره وشر ما فيه .

obeikandl.com

ونيسرك لليسرى

الحمد لله الذي بيده مفاتيح الفرج ، والشكر له عدد ما سار سائر فوق الأرضين ودرج ، وعدد ما أشرق البدر وما تنفس الصبح وانبلج ، له الحمد وله الشكر وله الفضل ، فما جعل علينا في الدين من حرج . والصلاة والسلام على النبي الأمين ، والرحمة للعالمين ، وصفوة الخلق أجمعين ، بعثه الله هادياً ومبشراً ، ومعلماً وميسراً ، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه الطاهرين ، وبعد ..

إن هذا الدين هو دين الفطر السليمة ، والنفوسِ القويمة ، دين اليسر والسهولة والرفق واللين ، والرحمة والإحسان ، والعفو والغفران ؛ دين يأبى العنت ، ويرفض المشقة ، ويكره التنطع ، ويمقت التزمت . أحكامه ميسرة ، وعباداته متناولة ، وأوامره سهلة ونواهيه محتملة ، لا يأمر بما يرهق ، ولا ينهى عما لا يطاق ، ولا يكلف بما لا يستطاع . اختياره نعمة ورسوله رحمة ، والتنكر له نقمة ، لا عنت ولا مشقة ، لا نصب ولا وصب ، لا آصار ولا أغلال ، لا تعقيد ولا تشديد ، لا إفراط ولا تفريط ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ [البقرة:١٤٣] ، تيسيرٌ لليسرى ، وبعدٌ عن العسرى ، فهو النهج الأكمل ، والطريق الأجمل والصراط الأمثل ؛ فالله تعالى أراد بنا اليسر ، ولم يرد بنا العسر ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ

﴿الْعُسْرَ﴾ [البقرة : ١٨٥] ، فجعل الدين ميسراً ، ولم يكلف نفساً إلا وسعها، قال سبحانه : ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ﴾ [الليل : ٧] وجعل كتابه ميسراً ، فقال – جل وعلا – : ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر : ١٧] .

وجعل نبيه مُيَسِّراً فيسره لليسرى ، وبعثه بالحنيفية السمحة ، وأوحى إليه : «أني رضيت لهذه الأمة اليسر ، وكرهت لها العسر» ، وأخبر تعالى أنه بعثه ليضع عن أمته إصرها والأغلال التي كانت في أعناقها .

يقول ابن كثير – رحمه الله – : «إن النبي ﷺ جاء بالتيسير والسماحة ، وقد كانت الأمم التي قبلنا في شرائعهم ضيق عليهم فوسّع الله على هذه الأمّة أمورها وسهّلها لهم» .

وقدأمر الله عباده أن يتوسلوا إليه ويدعوه بقوله : ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا﴾ [البقرة : ٢٨٦] ، فقد كُلِّفت الأمم قبلنا أموراً شاقة مرهقة ، من قتل للنفس لمن أراد التوبة ، ومن قطعٍ لموضع النجاسة من الجلد والثوب ، ومن قتل من شتم أباه وأمه ، ومن عدم جواز أخذ الدية من القاتل حتى ولو كان خطأ ، ومن إحراق الغنائم ومن عدم التطهر بالتيمم .. إلى غير ذلك من الأمور التي يظهر فيها العنت ، وتتجلى فيها المشقة ، ويبدو فيها الحرج ، أعفانا الله تعالى منها ، وتجاوز لنا فيها ، ويسر لنا الشريعة ، وسهل لنا الملة ، وقرب لنا المغفرة . فالتشديد ممنوع ، والإصر موضوع ، والحرج مرفوع .

وبعد أن ذكر الله تعالى كلاماً عن أحكام الوضوء والغسل والجنابة والتيمم عند فقد الماء – وذلك في سورة المائدة – بعد أن ذكر ذلك ، بين أن الغاية من هذه التشريعات ليس الإعنات والمشقة ، إنما هو تكليف مع التخفيف للتطهير وإتمام النعمة ، فقال تعالى : ﴿ **مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ** ﴾ [المائدة : ٦] .

وفي سورة الحج بعد أن أمر الله تعالى عباده المؤمنين بالركوع والسجود والإتيان بمجمل الطاعات من العبادة وفعل الخير والمجاهدة في الله حق جهاده ، عقب على ذلك بأنه لم يرد بعباده الحرج ، فقال تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٧٧﴾ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ** ﴾ [الحج : ٧٨] .

وقد فسر ابن عباس رضي الله عنه قوله تعالى : ﴿ **وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ** ﴾ بقوله : إنما ذلك سعة الإسلام ، وما جعل الله فيه من التوبة والكفارات فليس هناك ضيق إلا ومنه مخرج .

ويقول تعالى : ﴿ **لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا** ﴾ [البقرة : ٢٨٦] أي ما يسع الإنسان ويطيقه فلا يعجز عنه ولا يضيق عليه ولا يحرج فيه . ومن دعاء المؤمنين : ﴿ **رَبَّنَا وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلا تُحَمِّلْنَا مَا لا طَاقَةَ لَنَا بِهِ** ﴾ [البقرة : ٢٨٦] ، فيقول الله : « قد فعلت » .

وقد بين تعالى أن طريق الجنة طريقٌ سهلٌ ميسر ، وبوسع كل إنسان

أن يصل إليه ، فهي مع عظم محلها يوصل إليها بالعمل الصالح من غير تحمل للصعب ، فهو طريق سهل يسير .

قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [الأعراف : ٤٢] .

فالحمد لله الذي يسر لنا الدين ، ورفع عنا الحرج ، ومنَّ علينا بالتخفيف ، فليس في ديننا مجال لمتنطع ، ولا سوق لمتزمت ، ولا مكان لمتشدد .

ولقد تجلى هذا اليسر واضحاً جلياً في نبي الرفق والتيسير ، وتعامل البشير النذير ، فكان يسيراً ميسراً ، هينا ليناً ، حليماً مترفقاً يسره الله لليسرى ، فظهرت دلائل اليسر في حياته ، وتجلت أنوار الرفق في دعوته ، وعبقت نسائم اللطف من أخلاقه ، يُسْرٌ في أخلاقه ، يُسْرٌ في دعوته ، يُسْرٌ في عبادته ، يُسْرٌ في أحكامه ، يُسْرٌ في عقوبته ، يُسْرٌ في يده ، يُسْرٌ في لسانه ، يُسْرٌ في علمه ، يُسْرٌ في تصوره ، يُسْرٌ في تفكيره ، يُسْرٌ في أخذه للأمور ، يُسْرٌ في علاجه للأمور ، يُسْرٌ مع نفسه ، يُسْرٌ مع أهله ، يُسْرٌ مع أصحابه ، يُسْرٌ مع أعدائه ، يُسْرٌ مع الكبير ، يُسْرٌ مع الصغير ، يُسْرٌ يفيض نداه في كل صغيرة وكبيرة من أمور حياته ، قال عن نفسه ﷺ : «إن الله لم يبعثني معنتاً ولا مُتَعنِّتاً ولكن بعثني معلماً ميسراً» [أخرجه البخاري] .

يُسْرٌ في دينه حيث يقول : «إن خير دينكم أيسره ، إن خير دينكم

أيسره ، إن خير دينكم أيسره» [رواه أحمد] .

وقال ﷺ : «إنكم أمّةٌ أريد بكم اليسر» [رواه أحمد] .

ويقول : «إن الدين يسر ولن يشادّ الدين أحدٌ إلا غلبه فسددوا وقاربوا وأبشروا» [رواه البخاري] .

وأخبرنا أن اليسر والرفق من صفاته جل وعلا فقال : «إن الله رفيق يحب الرفق» [رواه مسلم] .

يُسْرٌ في دعوته : حيث يقول لمعاذ بن جبل وأبي موسى الأشعري لما بعثهما إلى اليمن : «يسرا ولا تعسرا ، وبشرا ولا تنفرا ، وتطاوعا» .

[أخرجه البخاري]

يُسْرٌ في أموره : فما خُيِّر بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثماً

يُسْرٌ في مناسكه : فما سئل في الحج عن شيء قُدِّم ولا أخر إلا قال : افعل ولا حرج.

يُسْرٌ في صلاته : واستمع إليه يقول : «إني لأقوم في الصلاة وأنا أريد أن أطول فيها فأسمع بكاء الصبي فأتجوز في صلاتي كراهية أن أشق على أمه» [أخرجه البخاري] .

جاء رجل إليه ﷺ فقال إني لأتأخر عن صلاة الصبح من أجل فلان مما يطيل بنا ، فما غضب ﷺ في موعظة قط أشد مما غضب يومئذ ، فقال :

«أيها الناس إن منكم منفرين ، فأيكم أمّ الناس فليوجز فإن من ورائه الكبير والضعيف وذا الحاجة» [أخرجه البخاري ومسلم] .

يُسْرٌ في صيامه وقيامه : «أما إني والله أخشاكم لله وأتقاكم له ، ولكني أصوم وأفطر ، وأصلي وأرقد ، وأتزوج النساء ، فمن رغب عن سنتي فليس مني» [صحيح الجامع].

وقال لمن أراد أن يصوم النهار ويقوم الليل : «افطر وقم ونم فإن لبدنك عليك حقاً ، وإن لعينك عليك حقاً وإن لربك عليك حقاً وإن لزورك – أي زوّارك – عليك حقاً» [رواه أحمد] .

ويُسْرٌ في دعوته ﷺ وتعليمه ، عن معاوية بن الحكم السلمي رضي الله عنه قال : بينا أنا أصلي مع رسول الله ﷺ إذ عطس رجل من القوم فقلت : يرحمك الله فرماني القوم بأبصارهم ، فقلت : واثكل أمياه! ، ما شأنكم تنظرون إليّ؟ ، فجعلوا يضربون بأيديهم على أفخاذهم ، فلما رأيتهم يُصمّتونني سكتُّ ، فلما صلى رسول الله ﷺ دعاني فبأبي هو وأمي ما رأيت معلماً قبله ولا بعده أحسن تعليماً منه ، فوالله ما كهرني ولا ضربني ولا شتمني ، قال : «إن هذه الصلاة لا يصلح فيها شيء من كلام الناس إنما هو التسبيح والتكبير ، وقراءة القرآن» [أخرجه مسلم وأبو داود].

وبال أعرابي في ناحية من نواحي المسجد فزجره الناس فنهاهم رسول الله ﷺ ، فلما قضى بوله أمر النبي ﷺ بذنوب – دلو – من ماء فأهريق عليه ، وقال لأصحابه : «إنما بعثتم ميسرين ولم تبعثوا معسرين» [رواه

النسائي] ، وفي رواية ثم دعاه وعلمه في رفق ولين ، وقال له : «إن هذه المساجد لا تصلح لشيء من هذا البول والقذر ، وإنما هي لذكر الله وقراءة القرآن» [رواه النسائي] مما جعل الأعرابي يتأثر بهذا اللطف واليسر والرفق ، فيتجه إلى السماء قائلاً : اللهم ارحمني ومحمداً ولا ترحم معنا أحداً.

ويقول ﷺ : «علّموا ويسّرُوا ولا تعسروا ، وإذا غضبت فاسكت وإذا غضبت فاسكت ، وإذا غضبت فاسكت» [رواه أحمد] .

يُسْرٌ في تعامله مع السائل والفقير والمحتاج ، فكان الأعرابي يجبذه بردائه ، ويقول له : أعطني من مال الله الذي عندك ، فيبتسم في وجهه ويأمر له بعطاء .

يُسْرٌ مع الخدم والأجراء ، فما ضرب بيده شيئاً قط لا امرأةً ولا خادماً إلا أن يجاهد في سبيل الله .

يُسْرٌ في لباسه فكان ﷺ يلبس ما تيسر من اللباس .

يُسْرٌ في طعامه وشرابه ، فكان لا يرد موجوداً ولا يتكلف مفقوداً وما قرّب إليه شيء من الطيبات إلا أكله ، إلا أن تعافه نفسه فيتركه من غير تحريم ، وما عاب طعاماً قط .

يُسْرٌ في نومه وانتباهه ، ينام على فراشه تارة ، وعلى النطع تارة ، وعلى الحصير تارة ، وعلى الأرض تارة .

يُسْرٌ في تعامله وبيعه وشرائه : «رحم الله رجلاً سمحاً إذا باع وإذا

اشترى وإذا اقتضى » [رواه البخاري] .

ويقول ﷺ : « دخل رجل الجنة بسماحته قاضياً ومتقاضياً » .

[رواه أحمد]

ويقول ﷺ : « من أنظر معسراً – أو وضع له – أظله الله يوم القيامة تحت ظل عرشه » [رواه الترمذي] .

يُسْرٌ في أخلاقه ومجالسه ، فكان دائم الابتسامة ، لطيف العبارة طلق المحيا ، حسن المداعبة ، صادق الممازحة ، متخولاً بالموعظة .

يُسْرٌ مع المذنب والمخطئ ، جاءه رجل فقال : يا رسول الله إني أصبت حداً فأقمه عليّ ، فلم يسأله النبي ﷺ عن ذلك الحد ونوعه ، ثم حضرت الصلاة ، فصلى مع النبي ﷺ فلما قضى الصلاة ، قام إليه الرجل فقال : يا رسول الله إني قد أصبت حداً فأقم فيَّ كتاب الله ، قال : « أليس قد صليت معنا؟ » ، قال : نعم ، قال : « فإن الله قد غفر لك ذنبك » .

[أخرجه البخاري]

يُسْرٌ حتى في الأسماء ، فمن كراهته للعسر والمشقة كان يغير من تسمى بما يوحي بذلك . جاءه رجل . فقال له : « ما اسمك؟ » ، قال : حَزْن – أي صعبٌ وَعِرٌ – قال : « أنت سهل » [صحيح الأدب المفرد] ، وكانت امرأةٌ اسمها عاصية فسماها جميلة إلى غير ذلك .

لقد كانت سيرته ﷺ كلها صفحات من السماحة واليسر ، والهوادة واللين والتوفيق إلى اليسر ، وذلك هو التيسير لليسرى الذي بشره به ربه

جل وعلا ، فاتفقت الشخصية اليسيرة الميسرة مع الرسالة السهلة اليسيرة الميسرة التي لا تكلف الناس حرجاً ، ولا تحملهم مشقة ، لقد كان حريصاً على المؤمنين ، عزيزاً عليه ما يعنتهم ، رؤوفاً رحيماً بهم ، وكان يقول ﷺ : « إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم ، وما نهيتكم عنه فاجتنبوه » [رواه أحمد].

وكان ﷺ يبتهل إلى ربه داعياً على من حمَّل أُمَّتَه عنتاً أو مشقة، فيقول : « اللهم من ولي من أمر أمتي شيئاً فشق عليهم فاشقق عليه ومن ولي من أمر أمتي شيئاً فرفق بهم فارفق به » [رواه مسلم].

وكان يبين درجة اليسر والسهولة فيقول : حُرِّم على النار كل هَيِّنٍ ليِّنٍ سهلٍ قريبٍ من الناس » [أخرجه أحمد].

ومن أيسر اليُسر في حياته ﷺ عرضه للإسلام ، وشرحه للدين ، وبيانه للمنهج . كان يُعرِّفه في أيسر أسلوب ، وأسهل عبارة ، وأقرب طريقة ، لا تعقيد ولا غموض ، لا تطويل ولا إملال ، لا تمحّل ولا تعنت حيث كان يأتيه السائل من مكان بعيد فيشرح له الدين في أوجز وقت .

جاء إليه رجل بعرفة ، فزاحم الناس حتى خلص إليه ، فأخذ بخطام راحلته ، ثم قال : شيئان أسألك عنهما : ما ينجيني من النار؟ وما يدخلني الجنة؟ فنظر النبي ﷺ إلى السماء ثم أقبل عليه بوجهه الكريم فقال : لئن كنت أوجزت المسألة لقد أعظمت وطوّلت فاعقل عني إذاً : اعبد الله ولا تشرك به شيئاً ، وأقم الصلاة المكتوبة ، وأد الزكاة المفروضة ،

وصم رمضان » [رواه أحمد].

اللهم يسر لنا الأمور ، وادفع عنا الشرور ، اللهم لا سهل إلا ما جعلته سهلاً ، وأنت تجعل الحزن إذا شئت سهلاً .

opeikandl.com

احفـــظ اللـه يحفظـــك

عن ابن عباس – رضي الله عنهما – قال : كنت خلف النبي ﷺ يوماً فقال : « يا غلام إني أعلمك كلمات : احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك ، إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله . واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك ، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيءٍ قد كتبه الله عليك ، رفعت الأقلام ، وجفت الصحف » .

[رواه الترمذي]

وفي رواية أخرى « احفظ الله تجده أمامك ، تعرّف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة ، واعلم أن ما أخطأك لم يكن ليصيبك ، وما أصابك لم يكن ليُخطئك ، واعلم أن النصر مع الصبر ، وأن الفرج مع الكَرْب ، وأن مع العسر يسراً » [رواه أحمد].

الحديث خطبة عظيمة ، وموعظة جليلة ، ووصية ماتعة ، وكلمة جامعة ؛ البيان رائع ، والأسلوب ماتع ، المعنى جزل ، واللفظ سهل ، اللفظ يسابق المعنى ، والمعنى يسابق اللفظ ، يطرق القلب قبل السمع ، ويهز الوجدان ، ويثير الكيان ، قبل أن تلتقطه الآذان . لولا محاولةُ

التذكير ببعض الفوائد التي حواها ، والمعاني التي أرساها لاكتفيت به خطبة ، وأنعم بها من خطبة ، وأكرم بها من وصية . إن الكلمتين الأوليين منه قد جمعتا أحكام الشريعة ، وروح الدين ، ولب الإسلام ، وخلاصة الإيمان ، «احفظ الله يحفظك» ، فحقيقة الدين هي حفظ الله في أوامره ونواهيه ، وحقيقة الجزاء هي حفظ الله للعبد من كل مكروه في الدين والدنيا والآخرة .

إن هذا الحديث الهائل أصل عظيم في مراقبة الله تعالى وخشيته في السر والعلن ، وفي مراعاة حقوقه ، والتفويض لأمره ، والتوكل عليه ، وشهود توحيده وتفرده ، وعجز الخلائق كلهم وافتقارهم إليه جل وعلا .

كان ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ خلف النبي ﷺ – أي رديفه– على دابته ، وهذه منزلة رفيعة ، وإكرام بالغ لمن يردفه النبي ﷺ معه على دابته . ومن حرص العلماء على بيان كل أمر من أمور حياته ﷺ فقد أحصى بعضهم عدد الذين أردفهم النبي ﷺ معه ، فبلغوا أكثر من أربعين رديفاً ، وقد كان عُمَرُ ابن عباس حينما ألبسه ﷺ هذه الحلة الرائعة ، وأسمعه تلك الوصية الجامعة ، كان عمره نحو عشر سنين وقد اختاره ﷺ لحمل هذه الوصية لعلمه ما يؤول إليه أمر ابن عباس ، وما سيكون له من منزلة رفيعة، ورتبة عالية في العلم والمعرفة ، والدين والتقوى ، وكمال الأخلاق، وحسن الأحوال . فقد أصبح عالم الأمة ، وحبر الملة ، وترجمان القرآن ، وفريد الزمان ، تطوى إليه المسافات ، وتضرب له أكباد الإبل ، وقوله ساطع ، ودليله قاطع ، ورأيه نافذ ، وكلامه حجة ؛ «إني أعلمك

كلمات» ، فهي ليست خطبةً طويلة ، ولا كلاماً كثيراً ، وإنما هي كلماتٌ معدودة ، وعباراتٌ محدودة ، احفظ الله يحفظك . . .

كيف يحفظ المرءُ الله تعالى ؟

حِفْظ الله تعالى بحفظ حدوده ، وحفظ حقوقه ، وحفظ أوامره ونواهيه ، يحفظ الأمر بامتثاله ، ويحفظ النهي باجتنابه ، ويحفظ الحد بالوقوف عنده ، ويحفظ الحق بأدائه . فمن حفظ هذه الأمور فقد حفظ الله تعالى ، فحقٌ على الله أن يحفظه ، ويكون من الحافظين لحدود الله الذين امتدحهم الله تعالى في كتابه الكريم بقوله ﴿ **هذا ما توعدون لكل أوّاب حفيظ * من خشي الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب** ﴾ [ق : ٣٣] ، انظر إلى روعة الآية وانظر إلى تعريف الحفيظ ﴿ **من خشي الرحمن بالغيب** ﴾ [ق : ٣٤] ، فهو حافظ لله في سره وجهره ، في إقامته وسفره في حِلّه وترحاله .

ومن حفظ الإنسان لله تعالى ، محافظتُه على الصلاة ، قال تعالى : ﴿ **حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلاةِ الْوُسْطَى** ﴾ [البقرة : ٢٣٨] ، وقال ﷺ : «من جاء بهنّ لم يضيع منهن شيئاً كان له عند الله عهدٌ أن يدخله الجنة» [أخرجه النسائي] .

ومن حِفْظ الإنسان لله تعالى ، حفظُ الرأس والبطنِ كما روي عنه ﷺ أنه قال : «الاستحياءُ من الله حق الحياء أن تحفظ الرأس وما وعى ، وتحفظ البطن وما حوى» [أخرجه الترمذي] .

الرأس وما وعى : حفظُ الفكر ، حفظُ العقل ، حفظُ السمع ، حفظُ البصر ، حفظُ اللسان ، ﴿ **إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً** ﴾ [الإسراء : ٣٦].

البطن وما حوى : البعدُ عن أكل الحرام ، حفظُ الفرج ، حفظ القلب من الإصرار على المعصية ، ﴿ **وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ** ﴾ .

[البقرة : ٢٣٥]

ومن أعظم ما يجب حفظه : اللسان والفرج ، قال ﷺ : « من حفظ ما بين لحييه ، وما بين رجليه دخل الجنة » [أخرجه أحمد] .

وقد أمر – عز وجل – بحفظ الفروج ، ومدح الحافظين لها فقال : ﴿ **قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ** ﴾ [النور : ٣٠] ، فمن سافر إلى البلاد البعيدة ، واختفى عن أنظار الناس ، ليطلق العنان لفرجه في الحرام ، فليعلم أن الله تعالى خبير بما يصنع ، عليم بما يفعل .

﴿ **وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا** ﴾ [النور : ٣١] ، فأي مؤمنة هذه تلك التي تسمع هذا النداء ثم تتنكر له ، فترمي لباس الحشمة ، وتخلع رداء العفة ، وتَعرض زينتها، وتبرز مفاتنها، وتدفق حياءها .

ويقول تعالى : ﴿ **وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيراً وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً** ﴾ [الأحزاب : ٣٥].

يقول أبو إدريس الخولاني – رحمه الله تعالى – أول ما وصى الله به آدم عند إهباطه إلى الأرض : حفظ فرجه ، وقال : «لا تضعه إلا في حلال» .

هذا حفظُ الإنسانِ لله ، فما هو حفظُ اللهِ للإنسان ؟

احفظ الله يحفظك : مَن حَفِظَ حدود الله ، وحفظَ حقوقه ، وحفظ أوامره ونواهيه كان جزاؤه أن يحفظه الله تعالى ، فالجزاء من جنس العمل كما قال تعالى : ﴿ **أَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ** ﴾ [البقرة : ٤٠] ، ﴿ **فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ** ﴾ [البقرة : ١٥٢] .

فمن حفظ الله حفظه الله ، وهل من نعمة أجل من حفظ الله لعبده؟! عش ناعم البال ، وسر مطمئن الخاطر ، وسافر هادئ النفس ، وارتحل سالي الفكر ، إذا علمت أن الله حافظك ، ومولاك حارسك . وحفظ الله لعباده نوعان :

أحدهما : حفظه له في مصالح دنياه ؛ يحفظه في بدنه ، يحفظه في ولده في أهله في ماله ، قال تعالى : ﴿ **لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ** ﴾ [الرعد : ١١] .

قال ابن عباس – رضي الله عنهما – : هم الملائكة يحفظونه بأمر الله فإذا جاء القدر خلّوا عنه .

ولقد كان من دعائه الجامع ﷺ قوله : «اللهم إني أسألك العافية في الدنيا والآخرة ، اللهم إني أسألك العفو والعافية في ديني ودنياي وأهلي

ومالي ، اللهم استر عورتي ، وآمن روعتي ، واحفظني من بين يدي ومن خلفي ، وعن يميني ، وعن شمالي ، ومن فوقي ، وأعوذ بعظمتك أن أغتال من تحتي » [أخرجه أبو داود].

وإن العبد إذا حفظ الله تعالى في حال صباه وقوته ، حفظه الله في حال كبره وضعف قوته ، ومتعه بسمعه وبصره ، وحوله وقوته وعقله .

كان أحد العلماء الكبار قد جاوز المائة سنة وهو ممتع بعقله وقوته فوثب يوماً وثبة شديدة فعوتب في ذلك ، فقال : هذه جوارح حفظناها عن المعاصي في الصغر ، فحفظها الله علينا في الكبر .

وقد يحفظ اللهُ العبدَ الصالح حتى بعد موته ، وذلك بحفظه لأبنائه كما في قوله تعالى : ﴿ وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا ﴾ [الكهف : ٨٢] ، قال ابن عباس وغيره : إنهما حُفظا بصلاح أبيهما ، فمن حَفِظَ اللهَ حفظهُ اللهُ من كل أذى .

والنوع الثاني : من أنواع حفظ الله للعبد ، وهو النوع الأهم والأعظم هو : حفظُ الله للعبد في دينه وإيمانه ، فيحفظه في حياته من الشبهات المضلة ، ومن الشهوات المحرمة ، ويحفظ عليه دينه عند موته فيتوفاه على الإيمان .

وقد كان من دعائه ﷺ اللهم احفظني بالإسلام قائماً ، واحفظني بالإسلام قاعدا ، واحفظني بالإسلام راقدا ، ولا تشمت بي عدواً ولاحاسدا » [صحيح الجامع] ، فالله تعالى يحفظ على المومن دينه إذا حفظ

حدود الله ، ويحول بينه وبين ما يفسد عليه دينه .

قال ابن مسعود : إن العبد ليهم بالأمر من التجارة والإمارة حتى يُيَسَّر له ، فينظر الله إليه فيقول للملائكة : اصرفوه عنه فإني إن يسرته له أدخلته النار ، فيصرفه الله عنه ، فيظل يتطير يقول : سبقني فلان ، دهاني فلان ، وما هو إلا فضل الله عز وجل .

«احفظ الله تجده تجاهك» ، أي تجده معك بالحفظ والإحاطة ، والتأييد والإعانة ، حيثما كنت فتأنس به ، وتغنى به عن خلقه ، وفي الرواية الأخرى : «تجده أمامك» أي بالحفظ والتأييد ، والمعونة والنصرة ، والمعية والحفظ ، ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ [النمل : ١٢١].

وخص الأَمَام من بين سائر الجهات إشعاراً بشرف المقصد وبأن الإنسان مسافر إلى الآخرة ، والمسافر إنما ينظر إلى الأمام دائماً ، فمن حفظ الله وجد الله أمامه في سفره في الدنيا وفي سفره للآخرة .

«وإذا سألت فاسأل الله» ، لأن الله تعالى هو الذي بيده خزائن الوجود ، وأزمتها إليه ، فلا قادر ولا معطي ولا متفضل غيره ، فهو أحق أن يقصد ويسأل ، وهو الذي يُحبّ السؤال ويأمر به «واسألوا الله من فضله» ، ويغضب ممن ترك سؤاله :

الله يغضب إن تركت سؤاله
وبُنيّ آدم حين يُسأل يغضب

فلا فائدة من سؤال الخلق والتذلل لهم إذ لا يملكون نفعاً ولا ضراً

لأنفسهم فضلاً عن غيرهم ، وإنما يميل القلب إلى المخلوق ويركن إليه لضعف يقينه ، وقلة توكله ، ووقوعه في الغفلة ، قال تعالى : ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق : ٣].

وإن سؤال الله تعالى دون خلقه هو المتعين ، لأن السؤال فيه إظهار الذل من السائل والمسكنة والحاجة والافتقار ، وفيه الاعتراف بقدرة المسؤول على دفع هذا الضرر ، ونيل المطلوب ، وجلب المنافع ، ودرء المضار . ولا يصلح الذل والافتقار إلا لله وحده ، لأن ذلك هو حقيقة العبادة .

وكان الإمام أحمد يقول : اللهم كما صنت وجهي عن السجود لغيرك فصنه عن المسألة لغيرك .

وكان طاووس يقول : إياك أن تطلب حوائجك إلى من أغلق دونك بابه وجعل دونها حجابه ، وعليك بمن بابه مفتوح إلى يوم القيامة ، أمرك أن تسأله ووعدك أن يجيبك .

« إذا استعنت فاستعن بالله » ، فمن أعانه الله فهو المعان ، ومن خذله الله فهو المخذول ، ولذلك كانت « لا حول ولا قوة إلا بالله كنز من كنوز الجنة » [متفق عليه] لأنها تضمنت براءة النفس من حولها وقوتها إلى حوله تعالى وقوته ، ومن ترك الاستعانة بالله واستعان بغيره وكله الله إلى من استعان به فصار مخذولاً .

واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا

بشيء قد كتبه الله لك ، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك» .

فهي كلمات تزرع في النفس قوة الإيمان ، وروعة اليقين ، وجمال التوكل ، وحسن الرضا بالقضاء ، ويشهد لذلك قوله تعالى : ﴿ **وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلا رَادَّ لِفَضْلِهِ** ﴾ [يونس : ١٠٧] وهذا من صميم التوحيد ، وهو الإيمان بأن الله تعالى هو النافع الضار .

ويروى في بعض الكتب الإلهية : «وعزتي وجلالي لأقطعنّ أمل من يؤمِّلُ غيري ، ولأُلبسَنّه ثوبَ المذلة عند الناس ، ولأحْجُبَنَّه عن قربي ولأُبْعِدَنّه عن وصلي ، ولأجعلنه متفكراً حيران . يؤمل غيري في الشدائد ، والشدائد بيدي ، وأنا الحي القيوم ، ويطرق بالفكر أبواب غيري وبيدي مفاتيح الأبواب ، وهي مغلقة وبابي مفتوح لمن دعاني» .

وقال تعالى : ﴿ **قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا** ﴾ [التوبة :١٥١] .

ومدار هذه الوصية على هذا الأصل المهم . فإن العبد إذا علم أنه لن يصيبه إلا ما كتب الله له من خير وشر ونفع وضر ، وأن اجتهاد الخلق كلهم على خلاف المقدور غير مفيد أبداً ، علم حينئذ أن الله وحده هو النافع الضار ، المعطي المانع ، فيوجب ذلك للعبد توحيد ربه عز وجل ، وإقراره بالطاعة ، وحفظ حدوده .

«تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة» ، فالعبد إذا اتقى الله وحفظ حدوده ، وراعى حقوقه ، في حال رخائه ، ووقت صحته، وحال طمأنيته وشبابه ، فقد تعرف إلى الله وصار بينه وبين ربه معرفة خاصة فيعرفه ربه في الشدائد ، ويحفظه في الأهوال ، إكراماً لتعرفه إلى الله في الرخاء . فمن ذكر الله في الرخاء ذكره الله في الشدة ، ومن ضيع ربه في الرخاء ، ضيعه الله في الشدة والبلاء .

وأعظم الشدائد التي تنزل بالعبد في الدنيا : الموت ، وما بعده أشد منه ، فمن حفظ الله في حال الرخاء حفظه الله في شدة الموت وأهواله ، وأما الفاجر المفرط ، والفاسق المتمرد ، فيقول : ﴿ **يَا حَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ** ﴾ [الزمر : ٥٦].

قال أحد السلف قبل موته : كيف لا أرجو ربي وقد صُمْتُ له ثمانين رمضان؟! .

وقال الآخر عند موته لابنته : يا بنتي لا تخافي عليّ فوالله ما فاتتني تكبيرة الإحرام منذ أربعين سنة .

وختم أحد العباد القرآن وهو في ساعات الموت ، ثم نظر إلى السماء فقال : بحبي لك إلا رفقت بي في هذا المصرع ، كنت أؤملك لهذا اليوم كنت أرجوك لا إله إلا الله .. ثم مات .

وقال أحد الزهاد عند موته : يا سيدي خبأتك لهذه الساعة ، ولهذا اليوم اقتنيتك ، حقق حسن ظني بك .

قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ [فصلت: ٣٠].

« رفعت الأقلام وجفت الصحف » ، هذه كناية عن تقدّم كتابة المقادير كلها ، والفراغ منها منذ أمدٍ بعيد ، والمعنى : أن ما يصيب العبد في دنياه مما يضره أو ينفعه فكله مقدر عليه ، ولا يصيب العبد إلا ما كتب له في ذلك الكتاب السابق ، قال تعالى : ﴿ مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ .

[الحديد : ٢٢]

وفي الحديث : أن رجلاً قال : يا رسول الله فيم العمل اليوم ؟ أفيما جفت به الأقلام وجرت به المقادير ، أم فيما يستقبل ؟ قال : « لا ، بل فيما جفت به الأقلام وجرت به المقادير » ، قال : فيم العمل؟، قال : « اعملوا فكل ميسر لما خلق له » [أخرجه مسلم].

فلنحفظ أبناءنا وأهلينا وبناتنا ، فلا نعرّضهم لفتنة ، ولا نسير بهم إلى خطر ، كي يحفظنا الله تعالى في أنفسنا وأموالنا وأهلينا . لا تعجب من كثرة المصائب ، ونزول الكوارث ، وحلول الأمراض ، وتعدّد العاهات وتتالي النكبات ، ومحق البركات ، فلو حفظنا الله لحفظنا الله ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ .

[الحشر : ١٩]

أخي المؤمن .. هذه وصية رسول الله ﷺ إليّ ، وهذه وصيتي إليك ، ويجب أن تكون هذه وصيتك لنفسك ، ووصيتك لأهلك ، ووصيتك لأبنائك : احفظ الله يحفظك ، احفظ الله يحفظك ، احفظ الله يحفظك ...

اللهم احفظنا بحفظك يا خير الحافظين ،،،

obeikandl.com

أهميـــة العلـم

الحمد لله المبتدىء بالنعم ، بارىء النسم ، ورازق الأمم ، الذي علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم .

والصلاة والسلام على من أوتي جوامع الكلم ، وكان خير نبي إلى خير الأمم ، أخرجنا الله به إلى النور وأنقذنا من الظلم ، صلى الله عليه وسلم وعلى آله وأصحابه أولي الفضل والهمم ، والرشد والحكم وبعد . .

فيوم بدء الدراسة مشهد حافل ، وملتقى هام ، في هذا اليوم تستأنف رحلة العلم ، وتبدأ مسيرة الفكر ، وتتجدد عزيمة الطالب ، وتفتح حصون العلم ، وتهيأ قلاع المعرفة ، وتجهز دور النور .

ففي هذا اليوم تكون انطلاقة رجال التعليم ، وإشراقة حملة الفكر ، وميدان رواد التربية ، ولقاء مشاعل الهدى ، ووضاءة مصابيح الدجى . جعلها الله انطلاقة رشيدة ، وبداية حميدة ، ورحلة سعيدة ؛ يبرق فجر ذلك اليوم والناس أمامه أصناف ، والمستقبلون له ألوان ، بين محب وكاره، ومتقدم ومحجم ، ومتفكرٍ ومتحير ، ومتفائل ومتشائم ، وسعيد وتعيس .

كم من محب لهذا اليوم يترقب قدومه بفارغ الشوق؟! ، وكم من

كاره له يتمنى لو أن بينه وبينه أمداً بعيداً؟! ، مستقبل له يرى فيه سعادته وسروره ، وراحته وحبوره ، يرى فيه إشراقاً للنفس ، ونوراً للقلب وإمتاعاً للعقل ؛ يزداد فيه علماً ، ويتعمق فيه فهماً ، يرتقي فيه درجات ، ويقطف منه ثمرات .

ومستقبل له يرى أنه شرٌّ لا بد منه ، ونكدٌ لا مناص عنه ، فَيُقْبِل عليه منغص العيش ، مكدر الخاطر ، عابس الوجه ، مظلم القلب . اضطر إليه لضغط المجتمع وضرورة الحياة ، أو خوف الأهل ، أو البحث عن الكسب ؛ فهو يرى ساعاتِه أياماً ، وأيامه شهوراً ، وأعوامه دهوراً .

كم من أبٍ ينتظر استئناف الدراسة بفارغ الشوق ، وعظيم الأمل؟ ، لأن له ابناً أو بنتاً سيبدأ رحلته التعلميه في ذلك اليوم ، فهو يعد أيام طفله ولياليه ، ولو كان بيده أن يستعجل الزمن أو يقدم السنين لجعل عمر طفله الذي يبلغ سِنُّه ستَّ سنوات ليفرح بدخوله المدرسة ، ويأنس بحمله لحقيبة العلم ، وارتدائه لزي المدارس ، وملابس التعليم . يصطحب الأب ابنه أو الأم ابنتها في شعورٍ من الفرح ، وجميل من الأمل لا يعرف روعته ولا يتصور حلاوته إلا من مرّ به .

بداية طريق العلم والتعليم تثير في النفس أفكاراً متعددة ، وخواطر متنوعة ؛ لا أمتع من العلم وأخباره ، والفكر وثماره ، والبحث وأسراره ، والفقه وأنواره .

دعونا نتأمل وإياكم شيئاً من أخبار العلم ، وآثار الهدى ، ومعالم

العلا ، ننظر إلى منزلة العلم في ديننا ، والفهم في شرعنا ، والفقه في نهجنا ، إنها المنزلة العظمى ، والمرتبة الأسمى ، والدرجة العليا . تعالوا بنا اليوم نعشْ مع العلم ومنزلته ، والعلماء وفضلهم ، والعظماء ودورهم ، والنجباء وأعاجيبهم ، لعل في ذلك تحريكاً للنفوس ، وشحذاً للهمم ، وتذكيراً للقلوب ، واستلهاماً للماضي ، وإعماراً للحاضر ، وإدراكاً للواجب ، واعترافاً بالتقصير ، وإتلافاً للتفريط .

قال ابن القيم : العلم هادٍ ، وهو تركةُ الأنبياء وتراثهم . وأهله عصبتهم وورّاثُهم ، وهو حياة القلوب ، ونور البصائر ، وشفاء الصدور ، ورياض العقول ، ولذّةُ الأرواح ، وأنس المستوحشين ، ودليل المتحيِّرين ، وهو الميزان الذي به توزن الأقوال والأعمال والأحوال . وهو الحاكم المفرِّق بين الشك واليقين ، والغيّ والرشاد ، والهدى والضلال .

به يُعرف الله ويُعبد ، ويُذكر ويُوحّد ، ويُحمد ويمجّد ، وبه اهتدى إليه السالكون ، ومن طريقه وصل إليه الواصلون ، ومنه دخل عليه القاصدون ، وبه تعرف الشرائع والأحكام ، ويتميز الحلال والحرام ، وبه توصل الأرحام ، وبه تعرف مراضي الحبيب ، وبمعرفتها ومتابعتها يوصل إليه من قريب .

وهو إمامٌ ، والعمل مأموم ، وهو قائدٌ ، والعمل تابع ، وهو الصاحب في الغربة ، والمُحدّث في الخلوة ، والأنيس في الوحشة ، والكاشف عن الشبهة ، والغنى الذي لا فقر على من ظفر بكنزه ، والكهف الذي لا ضيعة على من أوى إلى حرزه . مذاكرته تسبيح ،

والبحث عنه جهاد ، وطلبه قربة ، وبذله صدقة ، ومدارسته تعدل الصيام والقيام ، والحاجة إليه أعظم منها إلى الشراب والطعام .

العلم سلم قصر المجد كم سطعت
بنوره من كيانات وبلدان
والعلم في ديننا عنوان روعته
وفي هُدى المصطفى تحظى ببرهان
واقرأ عن العلم في القرآن تلمحه
في قصة الخضر مع موسى بن عمران

سنعرض في إيجاز سريع لبعض النصوص من الكتاب والسنة التي تدل على شرف العلم ، ومنزلة الفكر .

إن ديننا الإسلامي دين العلم والتعليم ، والهداية والإرشاد ، والنور والبرهان ، ولذلك نرى أن انطلاقة الوحي ، وإطلالة النور ، ونزول القرآن إعلان لأهمية العلم ، وقيمة القلم ، وشأن القراءة ، فتهبط الآيات الأولى على قلب محمد ﷺ مستهلة بقوله تعالى : ﴿اقْرَأْ﴾ فلا أمية بعد اليوم ولا استسلام للجهل ، ولا ركون للظلام والضلال ، ﴿ اقْرَأْ﴾ فإن هذا الدين عنوانه القراءة ، ودستوره القرآن ، وروحه العلم ، وآلته القلم ، وآفته الجهل ، ﴿ **اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ**﴾ [العلق : ٥] .

ويقسم الله تعالى بالقلم إعلاء لشأنه ، فالقلم هو طريق العلم والتعلم

﴿ نَ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝١ مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴾ [ن : ٣].

هذا الدين يرفع شأن العلم وأهله ﴿ يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴾ [المجادلة : ١١] .

ويمقت الجهل وأهله ﴿ فلا تكونن من الجاهلين ﴾ [الأنعام : ٣٥] ، ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ ﴾ [الزمر : ٩].

ويقصر معرفة الله حق المعرفة ، وخشية الله عين الخشية على العلماء ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ [فاطر : ٢٨].

هذا الدين يدعو إلى العلم قبل العمل ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ ﴾ .

[محمد : ١٩]

وهذا إمام العلماء ، وسيد البلغاء والفصحاء ، وخاتم الأنبياء يدعو أمته إلى نور العلم ودوحة القراءة ، وميراث النبوة ، وينبوع الحكمة ، ونفض غبار الجهل ﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ ﴾ .

[الجمعة : ٢]

وها هو يملأ الأسماع والقلوب بأحاديثه العطرة التي يبين فيها أهمية العلم ، وبركة العلم ، ونور العلم ، ولا يسمح المجال هنا لبسط القول حول العلم وأهميته وأجر العالم والمتعلم ، ولكن نشنف الأسماع بحديثين بين يدي كلامنا عن العلم والعلماء ، قال ﷺ : « من سلك طريقاً يطلب فيه علماً ، سلك الله به طريقاً من طرق الجنة وإن الملائكة لتضع أجنحتها

رضاً لطالب العلم ، وإن العالم ليستغفر له من في السموات ومن في الأرض ، والحيتان في جوف الماء وإن فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب، وإن العلماءَ ورثة الأنبياء ، وإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً إنما ورثوا العلم ، فمن أخذه أخذ بحظ وافر» [أخرجه أبو داود والترمذي].

وعن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال : قال رسول الله ﷺ : «لا حسد إلا في اثنتين : رجل آتاه الله مالاً فسلطه على هلكته في الحق ، ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها» [أخرجه البخاري].

ولقد عرف الصحابة – رضوان الله عليهم – وعرف التابعون لهم بإحسان عرفوا منزلة العلم وأهميته ، وأن البشرية إذا جهلت وتركت العلم زاغت وضلت وتنكبت الصراط المستقيم فقاموا بواجب العلم والتعليم وحملوا إلى الأمة هدي الرسول ﷺ كاملاً مكملاً ، مجملاً ومفصلاً .

وقد ضرب الصحابة والتابعون لهم بإحسان على مر العصور أروع الأمثلة في الحرص على طلب العلم ، والتفنن في صيانته وتنقيته وتعليمه للأجيال المؤمنة . وسننقل إليك فيما بعد – إن شاء الله – طرفاً من ذلك الحرص ، ومقاطع من تلك التضحيات ، وعجائب من هاتيك المغامرات، وروائع من الرحلات المضنيات التي قاموا بها طلباً للعلم ، ورغبة في الأجر ، ونشراً للحق ، وصيانة للمنهج ، وحراسة للشريعة ، وتعليماً للأمة ، وكشفاً للغمة .

أقــول لهــا والعــيسُ تحــدج للســرى
أعـدي لفـقـدي مـا اسـتطعت من الصـبـر
ســأنفق ريعــان الشــبـيــبـة جــاهداً
على طلـب العـليــاء أو طلـب الأجــر
ألـيس مـن الخـــســـران أن ليــاليــاً
تمر بلا نـفـع وتحـــسب من عـــمـــري؟

obeikandl.com

obeikandl.com

العلمـــاء

العلماء هم ورثة الأنبياء ، وقدوة الأتقياء ، وأولى الأولياء ، بهم تستضيء البلدان ، ويدعى إلى الإيمان ، ويدل على الرحمن . أعظم الناس خشية للعلام ، وأكثرهم بركة على الإسلام ، خُصُّوا باستنباط الأحكام ، وعُنوا بضبط الحلال والحرام ، هم في الأرض كالنجوم في السماء ، والدواء للداء ، والضياء في الظلماء ؛ فضلهم ظاهر ، وسلطانهم قاهر ، ودليلهم باهر . يدعون من ضل إلى الهدى ، ويصبرون منهم على الأذى ، يُحيون بكتاب الله تعالى الموتى ، ويبصرون بنور الله أهل العمى، فكم من قتيل لإبليس قد أحيوه ، وكم من تائهٍ هدوه . ينفون عن كتاب الله تحريف الغالين ، وانتحال المبطلين ، وتأويل الجاهلين ، هم سُرُج الأزمنة ، فكل واحد منهم مصباح زمانه ، وسراج ميدانه ، وهم أرحم بأمة محمد ﷺ من آبائهم وأمهاتهم ؛ لأن الآباء والأمهات يحفظون أبناءهم من نار الدنيا وأوصاب الحياة ، والعلماء يحفظونهم من نار السعير وتعاسة المصير .

لم يورِّث الأنبياء درهماً ولا ديناراً ، وإنما وَرَّثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظٍ وافر ، فيا الله ما أعظم المورِّث ، وما أسعد الوارث !؟ إنهم أُنس المجَالِس ، وبهجة المجُالِس . وما ظنك بقوم استشهد بهم المعبود على أعظم

مشهود ، فقال جل من قائل ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾ [آل عمران : ١٨] فلم يستشهد بذوي الجاه ، ولا بذوي النسب العريق ، ولا بذوي المال ، ولا بذوي السلطان ، إنما بذوي العلم ، وحملة المعرفة .

طاعتهم أفرض على الناس من طاعة الآباء والأمهات ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء :٥٩]، فهم أحد صنفي ولاة الأمر ، لأن ولاة الأمر هم الأمراء والعلماء .

فولاية أهل العلم : في بيان شريعة الله ، ودعوة الناس إليها ، وولاية الأمراء : في تنفيذ شريعة الله وإلزام الناس بها . والأمراء إنما يطاعون إذا أمروا بمقتضى العلم ، ولذلك كان صلاح الناس بصلاح هذين الصنفين ، وفسادهم بفسادهم ، «أي العلماء والأمراء» .

فالعلماء كنز الملة ، وحُفَّاظ السنة ، وحملة الشريعة . أهل الجاه يذهب قدرهم بذهاب جاههم ، وأهل المال تموت قيمتهم بموتهم ، أما العلم فلا ينتهي سببه ، ولا ينقطع نسبه ، ولا ينقضي خيره ، ولا يخفت صيته ، ولا ينقطع أجره ، وأهله في درجة عالية في الدنيا والآخرة ، ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة : ١١] إذا فرح الناس بدنياهم ، سجدوا لله على ما آتاهم ، وإن شغل الملأ بالملذات ، شغلوا بتأمل الآيات البينات ، ومناجاة رب الأرض والسماوات . وإن أشربت قلوب الناس حبّ العرض الزائل ، وجدوا أنسهم وسعادتهم في تنقيح العلم وتأمل المسائل ؛ فهم منار سبيل الجنان ، وأقرب الناس إلى

الديان ، وأعدى أعداء الشيطان . في الخير قادة ، وفي الهدى سادة ، يقتدى بأفعالهم وأقوالهم ، وتقص آثارهم وترمق أعمالهم ، وترغب الملائكة في خلتهم ، وبأجنحتها تحفهم ، وكل رطب ويابس يستغفر لهم حتى الحيتان في الماء .

قال ﷺ : « وإن العالم ليستغفر له من في السماوات ومن في الأرض حتى الحيتان في الماء ، وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب ، وإن العلماء ورثة الأنبياء » [أخرجه أبو داود والترمذي] ، فهل بعد هذا منزلة ، وأحسن منه مرتبة؟! ، ﴿ **قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ** ﴾ [الزمر : ٩].

الله جل جلاله يصلي عليهم ، وملائكته وأهل السماوات والأرض ، حتى النملة في جحرها ، وحتى الحوت في الماء . كلما سلكوا طريقاً يبتغون فيه علماً سهل الله لهم طريقاً إلى الجنة . أراد الله بهم خيراً في الدارين ، ففقههم في الدين ، وجعلهم الموقعين عن رب العالمين ، فهم النصحاء الأمناء النبلاء ، العلماء بأيام الله . إذا تذكروا عظمة الله ، طاشت عقولهم ، وانكسرت قلوبهم ، وانقطعت ألسنتهم ، حتى إذا استفاقوا من ذلك ، يسارعون إلى الله بالأعمال الزاكية ، والأعين الباكية يعدون أنفسهم مع المفرطين ، وإنهم لأكياس أقوياء ، ومع الظالمين الخاطئين ، وإنهم لأبرار براء ، حيثما لقيتهم مهتمون مشفقون وجلون خائفون ، ﴿ **وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ** ﴾ [النور : ٤٠].

قصر الله خشيته حق الخشية ، ومعرفته حق المعرفة عليهم فقال :

﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر : ٢٨] ، وهم الذين عرفوا أن العلم ليس عن كثرة الحديث ، وإنما العلم هو كثرة الخشية . لا يفضلهم أحد ، ولا يفوقهم بشر ، منزلتهم عظيمة ، ومرتبتهم كريمة ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت : ٣٣] هم دعاة الرضا والهدى : «ومن دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً» [رواه مسلم] ، وهم أقرب الناس إلى درجة النبوة ، لأنهم يدلون الناس على ما جاءت به الرسل ، وهم أرقى الناس منزلة عند الله تعالى لأن الواسطة بين الله تعالى وبين عباده هم الرسل والعلماء ، ومن أراد النظر إلى مجالس الأنبياء ، فلينظر إلى مجالس العلماء ، وفضل العالم على العابد كفضل النبي ﷺ على أدنى أصحابه ، وذلك لأن العابد تابع للعالم متقيد به ، مقلد له في عبادته ، واجب عليه طاعته ولا عكس ، والعابد نفعه لنفسه ، أما العالم فنفعه للبشرية جمعاء .

ولحوم العلماء مسمومة ، وعادة الله في هتك أستار منتقصيهم معلومة ، ومن أطلق لسانه في العلماء بالثلب ، بلاه الله قبل موته بموت القلب . فهم مصابيح الدجى ، وأئمة الهدى ، وصفوة الورى ، وعنوان الرضا ، وأولو الفكر والتقى ، صيتهم ذائع ، وتاريخهم رائع وقربهم ماتع ونهجهم ناصع . أرض لم تشرق فيها أنوارهم أرض مظلمة ، وبلاد لم تكتحل برؤيتهم بلادٌ قاتمة ، وأوطان لم تعرف قدرهم أوطان خاسرة ، وأمة لم تصدر عن رأيهم أمة تائهة . وإن من أشراط الساعة أن يُرفع العلم

ويثبت الجهل ، ويُشرَب الخمر ، ويظهر الزنا .

فهم المبلغون عن الله وعن رسول الله ، أمناء على الوحي ، حفاظ للشرع ، حراس للنهج ، خدم للسنة ، صادقون مع الأمة ، ناصحون للبشرية ، مشفقون على الإنسانية . ينام الناس ملء أعينهم ، وهم يوقدون الشموع ، وينثرون الدموع ، وينطرحون بين يدي ربهم والناس هجوع ، يسألونه غفران الذنوب ، وصلاح الشعوب ، وصفاء القلوب . يراوحون بين أقدامهم وجباههم ، يجعلون جزءاً من وقتهم وحظاً من ليلهم ، وقسطاً من دعائهم ، لأئمة المسلمين وعامتهم ، يدعون لهم بالصلاح ، ويرجون لهم النجاح ، فما أحسن أثرهم على الناس ، وما أسوأ أثر الناس عليهم!! ، أفئدتهم من خشية الله مشفقة، وأعينهم باكية وقلوبهم مما عرفوا من الحق وجلة ، سعادتهم في بذل النصيحة ، وأنسهم في تبليغ الدعوة ، وراحتهم في ظلال العقيدة . أيقنوا أن تعلم العلم خشية ، وطلبه عبادة ، ومذاكرته تسبيح ، والبحث عنه جهاد ، وتعليمه من لا يعلمه صدقة ، وبذله لأهله قربة ، فهم مثل النجوم في السماء إذا بدت للناس اهتدوا بها ، وإذا خفيت عليهم تحيروا ، هم كالعين العذبة ماؤها زلال ، وجدولها رقراق ، ونفعها دائم . وإن لم يكن الفقهاء والعلماء العاملون هم أولياء الله فليس لله ولي ، تعلموا القرآن فعظمت قيمتهم ، ونظروا في الفقة فَنَبُل قدرهم ، وكتبوا الحديث فقويت حجتهم، ومثلهم مع الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضاً نقية طيبة ، فقبلت الماء وأنبتت الكلأ والعشب الكثير .

هذا غيض من فيض قدرهم ، وقطرة من بحر فضلهم ، ونقطة من مداد نبلهم ، ﴿ **أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ** ﴾ [الرعد : ١٩].

ولكن تلك المنزلة السامقة ، والرتبة العالية ، والميزة الغالية ، التي اختص بها العلماء ، وظفر بها الفقهاء ، منزلة لها تبعة ، ورتبة يترتب عليها ضريبة ، وميزة لها ثمن تلك المنزلة ، وهاتيك الرفعة إنما هي للعلماء الأتقياء ، والفقهاء الأولياء ، الذين عرفوا ربهم ، وأخلصوا قصدهم ، وصانوا علمهم ، واتبعوا نبيهم وقدوتهم ، فما أعظم أجرهم ، وأسعد حظهم!! .

أما من خان الأمانة ، وغش الديانة ، فوزره أعظم ، وجرمه أشنع ، ومصيره أفظع ، قال تعالى : ﴿ **وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ** ﴾ [الأعراف : ١٧٥] ، الويل كل الويل لمن أرادوا بعلمهم الدنيا وحظوظها ، والحياة ومتاعها ، قال عز وجل : ﴿ **مَن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا** ﴾ [الإسراء : ١٨] ، والويل لمن طلبوا العلم ليماروا به السفهاء ، ويكاثروا به العلماء ، أو يصرفوا به وجوه الناس إليهم ، « من تعلم علماً مما يبتغى به وجه الله عز وجل لا يتعلمه إلا ليصيب به عرضاً من الدنيا ، لم يجد عرف الجنة يوم القيامة : يعني ريحها » [أخرجه ابن ماجة وأبو داود] ، ما أعظم العقوبة ، وما أشد النكال ، وما أتعس المصير لمن فاته الإخلاص في علمه ، والصدق في قصده ، والتقوى في فقهه ، والخشية في نهجه!

وكفى زاجراً وتخويفاً ما أخبر به المعلم المشفق ، والناصح الصادق ﷺ في هذا الحديث المرعب والخبر المفزع حيث يقول :

«إن أول الناس يقضى عليه يوم القيامة رجل استشهد فأتي به فعرَّفه نعمه فعرفها ، قال : فما عملت فيها ، قال : قاتلت فيك حتى استشهدت ، قال : كذبت ، ولكنك قاتلت لأن يقال جريء ، فقد قيل ، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار ، ورجل تعلم العلم وعلمه ، وقرأ القرآن ، فأتي به فعرَّفه نعمه فعرفها ، قال فما عملت فيها ، قال : تعلمت العلم وعلمته وقرأت فيك القرآن ، قال : كذبت ، ولكنك تعلمت ليقال عالم ، وقرأت القرآن ليقال قاريء ، فقد قيل ، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار» [أخرجه مسلم].

ما أسوأ المصير لمن لم يراقب الخلاق ، ولم يحترم الميثاق!! ، قال سبحانه : ﴿**وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ**﴾ [آل عمران : ١٨٧] ، ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ**﴾ [البقرة : ١٥٩].

ومما يروى عن داود عليه السلام حكاية عن الله تعالى قوله : «إن أدنى ما أصنع بالعالم إذا آثر شهوته على محبتي أن أحرمه لذيذ مناجاتي» .

وقال الحسن رحمه الله : «عقوبة العلماء موت القلب ، وموت القلب طلب الدنيا بعمل الآخرة» .

وقال يحيى بن معاذ : «إنما يذهب بهاء العلم والحكمة إذا طلب بهما الدنيا» .

وكتب أحد السلف إلى أخٍ له ينصحه فقال : «إنك قد أوتيت علماً فلا تطفئن نور علمك بظلمة الذنوب ، فتبقى في الظلمة يوم يسعى أهل العلم في نور علمهم» .

وقيل لإبراهيم بن عيينة : أي الناس أطول ندماً؟ قال : «أما في عاجل الدنيا فصانع المعروف إلى من لا يشكره ، وأما عند الموت فعالم مُفَرِّط» .

وقيل خمس من الأخلاق هي من علامات علماء الآخرة ، مفهومات من خمس آيات من كتاب الله عز وجل ، وهي : الخشية ، والخشوع ، والتواضع ، وحسن الخلق ، وإيثار الآخرة على الدنيا ، وهو الزهد .

أما الخشية فمن قوله تعالى : ﴿ **إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ** ﴾ .

[فاطر : ٢٨]

وأما الخشوع فمن قوله تعالى : ﴿ **خَاشِعِينَ لِلَّهِ لا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلاً** ﴾ [آل عمران : ٩٩] .

وأما التواضع فمن قوله تعالى : ﴿ **وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ** ﴾ .

[الحجر : ٨٨]

وأما حسن الخلق فمن قوله تعالى : ﴿ **فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ** ﴾ .

[آل عمران : ١٥٩]

وأما الزهد فمن قوله تعالى : ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ [القصص : ٨٠].

فالحمد لله الذي منّ علينا بالعلماء الناصحين ، والفقهاء الصادقين ، والأولياء المخلصين . نسأل الله تعالى أن يحفظهم ، وأن يبارك فيهم ، وأن يجعلهم ممن يرجون بعلمهم وجه الله والدار الأخرة، وأن يوفق جميع علمائنا وأمرائنا ووزرائنا إلى كل خيرٍ وفلاح، وهدى ونجاح ، وتوفيق وصلاح .

اللهم رب جبرائيل وميكائيل وإسرافيل ، فاطر السماوات والأرض عالم الغيب والشهادة ، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون اهدنا لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم ،،

obeikandl.com

من سير العلماء

نعيش هذه اللحظات الماتعة ، والدقائق الغالية ، مع نبذة يسيرة ، ومفاخر جليلة ، لأسلافنا العظماء ، ورجالنا النبلاء . نتأمل العظمة في أروع أحوالها ، والبطولة في أجمل أشكالها ، والتقوى في أحسن أثوابها .

نقف عند أناس تتضاءل الجبال الراسيات أمام عظمتهم ، وتتحطم الصخور أمام عزائمهم ، وتقصر الجوزاء عند هممهم ؛ صبر وتضحية تعب ونصب ، سهر ووصب ، حل وارتحال ، سفرٌ وانتقال ، همة وطموح غربة ونزوح ، عزم وتصميم ، كتابة وترقيم ، تعلم وتعليم جوع وألم ، دواة وقلم ، إخلاص ونقاء ، تألق وصفاء ، خشوع وبكاء إن في خبرهم سلوة ، وفي قصصهم عبرة ، قال تعالى : ﴿ **فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ** ﴾ ، ﴿ **لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُوْلِي الأَلْبَابِ** ﴾ [الأعراف : ١٧٦] .

١ – جابر بن عبد الله : يقول جابر عن نفسه : (بلغني عن رجل من أصحاب النبي ﷺ حديث سمعه من رسول الله ﷺ ، فاشتريت بعيراً ، ثم شددت رحلي ، فسرت إليه شهراً حتى قدمت الشام ، فإذا عبد الله بن أُنيس ، فقلت للبواب : قل له جابر على الباب ،

فقال : ابن عبد الله؟ قلت : نعم ، فخرج عبد الله بن أنيس فاعتنقني ، فقلت حديث بلغني عنك أنك سمعته من رسول الله ﷺ فخشيت أن أموت أو تموت قبل أن أسمعه ، فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول : « يحشر الله الناس يوم القيامة عراةً غرلاً بُهْماً » قلنا : وما بُهْماً؟ قال : « ليس معهم شيء ، فيناديهم بصوت يسمعه من بَعُدَ كما يسمعه من قَرُبَ : أنا الملك ، أنا الديان ، لا ينبغي لأحد من أهل الجنة أن يدخل الجنة وأحد من أهل النار يطلبه بمظلمة ، ولا ينبغي لأحد من أهل النار يدخل النار وأحد من أهل الجنة يطلبه بمظلمة » ، قلت وكيف وإنما نأتي الله عراة بُهْماً ، قال : « بالحسنات والسيئات ») [رواه أحمد].

٢ – وهذا سعيد بن المسيب – رحمه الله – يقول : كنت أرحل الأيام والليالي في طلب الحديث الواحد .

٣ – وهذا الشعبي – رحمه الله – المتوفى عام [١٠٣ هـ] خرج من الكوفة إلى مكة المكرمة في طلب ثلاثة أحاديث .

٤ – وهذا مكحول الشامي – رحمه الله – ، المتوفى عام [١١٢هـ] يقول طفت الأرض كلها في طلب العلم ، ويقول : لم أدع بمصر علماً إلا حويته ، ثم أتيت العراق ، فلم أدع فيها علماً إلا حويت عليه فيما أرى ، ثم أتيت المدينة فكذلك ، ثم أتيت الشام فغربلتها .

٥ – وهذا علم الأعلام وإمام أهل السنة في الإسلام الإمام أحمد بن حنبل

– رحمه الله – المولود ببغداد سنة ١٦٤ هـ ، رحل إلى بلاد كثيرة جداً ، وكان يحفظ ألف ألف حديث ، يقول عن أسفاره : رحلت في طلب العلم والسنة إلى الثغور والشامات ، والموصل والمغرب ، والجزائر ، ومكة ، والمدينة ، والحجاز ، واليمن ، والعراقين جميعاً ، وفارس ، وخراسان ، والجبال ، والأطراف ، ثم عدت إلى بغداد .

٦ – وهذا الإمام الحافظ ابن أبي حاتم الرازي المتوفى عام [٢٢٧ هـ] ، يقول : وأما ما كنت سرت أنا من الكوفة إلى بغداد فما لا يحصى ، ومن مكة إلى المدينة مرات كثيرة ، وخرجت من البحرين قرب مدينة سلا ، وذلك في المغرب الأقصى إلى مصر ماشياً ، ومن مصر إلى الرملة ماشياً ، ومن الرملة إلى بيت المقدس ، ومن الرملة إلى عسقلان ، ومن الرملة إلى طبرية ، ومن طبرية إلى دمشق ، ومن دمشق إلى حمص ، ومن حمص إلى أنطاكية ، ومن أنطاكية إلى طرطوس . ثم رجعت من طرطوس إلى حمص ، وكان بقي عليّ شيء من حديث أبي اليمان فسمعته . ثم خرجت من حمص إلى بيسان ، ومن بيسان إلى الرَّقة ، ومن الرقة ركبت الفرات إلى بغداد وخرجت قبل خروجي إلى الشام من واسط إلى النيل ، ومن النيل إلى الكوفة ، كل ذلك ماشياً .

٧ – وهذا الإمام الحافظ أبو سعد السمعاني التيمي المتوفى عام [٥٦٢هـ] بلغ من التطواف والارتحال ما لا يخطر على بال ، وكان أخبار ارتحاله من الأساطير . وقد استمرت رحلاته زهاء عشرين سنة ، وهو لا

يعرف الملل ولا الكلل ، وقد أحصى بعض العلماء الرحلات والأسفار التي قام بها الإمام السمعاني فبلغت قُرابة مئة وسبعين مدينة وبلدا .

٨ – وهذاالإمام الحافظ محمد بن طاهر المقدسي ، المتوفى في بغداد عام [٥٠٧ هـ] كان يمشي في ليلة واحدة قريباً من سبعة عشر فرسخا ، وكان يمشي على الدوام بالليل والنهار عشرين فرسخاً ، والفرسخ بمشي القدم يُقدّر بساعةٍ ونصف تقريباً ، وهو نحو خمسة كيلو مترات أو أكثر ، بمعنى أن هذا الإمام كان يمشي في اليوم والليلة قدْر مائة كيلومتر . وكان كثير السفر للحج والعمرة ماشياً ، وقد رحل إلى أكثر من أربعين مدينة ليسمع الحديث ، يقول عن نفسه . بُلْتُ الدم في طلب الحديث مرتين ، مرة ببغداد ، ومرة بمكة ، وذلك أني كنت أمشي حافياً في حر الهواجر ، فيلحقني لذلك التعب والمرض.

وما ركبت دابة قط في طلب الحديث إلا مرة ، وكنت أحمل كتبي على ظهري ، وما سألت في حال طلبي للعلم أحداً . وكنت أعيش على ما يأتيني من غير سؤال ، ورحلت من طوس إلى أصبهان لأجل حديث أبي زرعة الرازي الذي أخرجه مسلم في الصحيح « كان من دعاء رسول الله ﷺ اللهم إني أعوذ بك من زوال نعمتك ، وتحول عافيتك ، وفجاءة نقمتك ، وجميع سخطك » ذاكرني به بعض المحدثين بالليل فلما أصبحت ، شددت عليّ رحلي – أي وضع خرج كتبه على ظهره – وخرجت إلى أصبهان ، ولم أحلل عنه حتى

دخلت على الشيخ أبي عمر ، فقرأته عليه عن أبيه عن أبي بكر القطان عن أبي زرعة ، ودفع إليّ أبو عمرو ثلاثة أرغفة ، وكمّثراتين وما كان وقع إليَّ تلك الليلة قوتي ، ولم يكن لي قوت غيره .

وأقمت بتنّيس مدة ، فضاق بي الحال ، ولم يبق معي غير درهم واحد ، وكنت في ذلك اليوم أحتاج إلي خبزٍ وإلى ورق للكتابة، فكنت أتردد إن صرفته في الخبز لم يكن لي ورق للكتابة ، وإن صرفته في الورق لم يكن لي خبز ، ومضى على هذا ثلاثة أيام ولياليهن لم أطعم فيها ، فلما كان بكرةُ اليوم الرابع قلت في نفسي : لو كان لي ورق لم يمكنني أن أكتب فيه شيئاً لما بي من الجوع ، فجعلت الدرهم في فمي وخرجت لأشتري الخبز فبلعت الدرهم ، ووقع عليّ الضحك ، فلقيني أبو طاهر الصائغ وأنا أضحك ، فقال : ما أضحكك ؟ ، قلت : خيراً ، فألح عليّ وأبيت أن أخبره ، فحلف لتصدقني لم تضحك؟ ، فأخبرته ، فأخذ بيدي وأدخلني منزله ، وتكلف لي في ذلك اليوم ما أطعمه .

٩ – لقد كان أولئك – رحمهم الله – يعانون من الفقر والفاقة ولهم في ذلك قصص عجيبة ، ومن أولئك الإمام محمد بن جرير الطبري ، يقول : أبطأت عني نفقة والدي واضطررت إلى أن فتقت كُمَّيْ قميصي فبعتهما .

١٠ – وانظر إلى هذا الإمام العظيم يعقوب بن سفيان الفارسي يقول :

أقمت في الرحلة ثلاثين سنة ، وكنت في رحلة فقلّت نفقتي ، فكنت أدمن الكتابة ليلاً وأقرأ نهاراً ، فلما كان ذات ليلة كنت جالساً أنسخ في السراج ، وكان شتاءً ، فنزل الماء في عيني فلم أبصر شيئاً ، فبكيت على نفسي لانقطاعي عن بلدي وعلى ما فاتني من العلم . فغلبتني عيناي ، فنمت فرأيت النبي ﷺ في النوم ، فناداني : يا يعقوب لم أنت بكيت ، فقلت : يا رسول الله ذهب بصري فتحسرت على ما فاتني ، فقال لي : ادن مني فدنوت منه فأمر يده على عيني كأنه يقرأ عليها ثم استيقظت فأبصرت ، فأخذت نسخي وقعدت أكتب » .

رحمهم الله رحمة واسعة ، وأحسن جزاءهم ، وأعظم ثوابهم ، وجمعنا بهم في جنات النعيم .